النزعات النفسية

يعتقد البعض أن الغريزة الجنسية ينظمها جهاز كالجهاز الهضمي أو الجهاز التنفسي وأن العقل يصيرها ويتحكم فيها كما يصير كل الغرائز الأخرى ويتحكم فيها، غير أن الواقع يقول لنا خلاف ذلك فهي التي تتحكم في العقل وهى التي ترضخ العقل لسلطانها وهى التي تملي عليه إرادتها فهي في الواقع الغريزة النفسية، وأنت إذا تدرجت مع نموها وجدتها تنبت مع الطفولة الرضيعة فالصغار يتلذذون وهم يرضعون أثداء أمهاتهم، يتلذذون بإحساس جنسي.

وفى تلك السن المبكرة تتركز العاطفة حول فم الطفل فهو يمتص لبن أمه ويشعر خلالها بنشوة عاطفية؛ فالطفل الذي يدأب على وضع أصبعه في فمه يحاول في ذلك إثارة اللذة الجنسية، وإذا كبر الطفل رويداً اتسعت منطقة الإحساس الجنسي وانتقلت من الفم إلى المنطقة المحيطة بالظهر والعجز، فهو في سن الثالثة أو الرابعة من عمره يكون قد انتقل بإحساس آخر إلى منطقة أخرى، وتبدو خطورة ذلك فيما تعتمد إليه الأم عندما تلقي بابنها الطفل على وجهه وتنهال ضربا على ظهره أو عجزه كأنها بذلك تعمل على تنشيط تلك المنطقة من الإحساس الجنسي، ناسية في ذلك ما قد يعرض الطفل في مستقبل حياته إلى الشذوذ الجنسي، لأن النشاط الجنسي إذا زاد عن حده في ذلك المكان – وفي ذلك الوقت من

السن – فقد يُؤدي إلى نكبات وخيمة في المستقبل كأن يصبح ذلك المكان الوحيد الذي يثير الناحية الجنسية مما قد يعرض المريض إلى الشذوذ الجنسي.

على أن من الأطفال في هذه السن الرابعة، أو الخامسة، أو السادسة من يظلون متعلقين بالماضي الذي كان يعيش وقت الرضاعة، أعني مُتعلقين بالإحساس العاطفي المُركز حول الفم، وهذا ما يُفسر لنا أيضًا امتداد العادة بالأطفال الذين يدأبون على وضع أصابعهم في أيديهم.

وبعد سن الرابعة تبتدئ العاطفة الجنسية تأخذ دورها في الطريق الطبيعي، ويشعر الإنسان حينذاك بإحساس جنسي عنيف، ولكن لسوء الحظ موجه نحو الأم. وفي تلك السن أيضًا الرابعة أو الخامسة تنتاب الطفل غيره شديدة نحو أبيه، فهو يرى أن أمه له وحده وأنه لا حق لإنسان آخر أن يُشاركه في هذا الحب.

ومن أجل الاحتفاظ بقوة ذلك الحب لأمه يغضب ويثور ويغار من أبيه، ومن هنا كانت الخطورة عندما يعجز الوالد الجاهل عن تفهم التيارات النفسية التي تجول بذهن الطفل الصغير فيتغاضى شعوره ويتقرب من زوجته أمام ابنه ظانًا بأن الابن صغير لا يدرك شيئًا مما يدور حواليه، وأن غيرة الابن التي تظهر أمامه إنما هي نوع من مزاح الأطفال.

ولا شك أن لذلك أثر كبير على شخصية الطفل، فهو يرى أمامه أمه الصورة المثالية التي وضعها في السماء يراها تنهار أمامه وتسقط بين براثن رجل آخر.

ولا شك أيضًا أن سقوط صورة الأم أمام ابنها مما يُؤدي إلى كارثة نفسية، فقد يمسي الطفل مفجوعًا حزينًا في آماله ناظرًا إلى العالم بمنظار أسود حزين غير واثق في نفسه مُتوقعًا الهزيمة في أعماله غير مُتفائل.

ولا شك أن هذه الأفكار المريضة التي تجول في ذهن الطفل يكون لها أثر كبير على حياته وشخصيته. ويقضي الطفل فترة من عمره يحدوه الحب العنيف نحو أمه، فهو يحزن لغيابها ويتألم لخروجها من الدار دون أن تأخذه معها، ومن أجل ذلك يقضي الساعات في بكاء مُستمر دون أن يستقر أو يهدأ نفسيًا حتى تعود من غيبتها البعيدة عنه.

وكما يعيش الطفل في خيال جنسي مع أمه تعيش الطفلة في خيال مع أبيها، فترى البيت مُتحزب شبه منقسم على نفسه، فالأطفال الذكور ينحازون نحو أُمهم في ميولهم ونزعاتهم وعواطفهم، بينما الفتيات الصغيرات يعشن في خيال آخر فينحزن نحو أبيهن، وقد تنقلب الحال فيها فيتعلق الطفل بأبيه وتتعلق الطفلة بأمها. وقد تتعقد الأمور فيتعلق الطفل بأمه ويتعلق بأبيه في الوقت نفسه، فهو يميل إلى كليهما في وقت واحد ويود من كلم نهما أن يبادلاه الحب وحده.

وهو يغار من والديه وتمتد جذور الغيرة المصحوبة بالأنانية إلى كل شيء يحيط به فيُحاول الاستحواذ على كل شيء، فإذا جلس إلى المائدة مع والديه راح يجمع كل الطعام أمامه، وإذا أحضر الوالد (رداء) إلى ابنه الآخر أو ابنته الأخرى انتابه شيء من الامتعاض الشديد المصحوب بخيبة الأمل؛ فهو يريد أولًا أن يكون هذا الرداء له ليشبع الأنانية، كما أنه ينظر إلى والده بشيء من العتاب لأن إحضار رداء إلى ابنه الآخر فيه معنى حب الوالد لابنه الآخر؛ مما يتعارض وطبعه الذي يكون الوالدين فيه حينذاك ملكًا له، وهكذا يعيش الطفل في خيوط مُعقدة مردها الميل الشديد إلى الأم والأب.

ويطلقون على هذا المريض الشديد التعلق بأمه أنه مُصاب بعقدة (أوديب) نسبة إلى الملك «أوديب» الذي تزوج أمه في القصة الخرافية من الأدب الإغريقي القديم، وهذا التعلق عادي في حياة الأطفال، ولكن خطورته أن يمتد بالمريض إلى سن مُتأخرة فيصل به السن إلى العشرين أو الثلاثين أو حتى إلى الأربعين أو الخمسين.. والمريض بعقدة أوديب الذي بلغ سن الرجال دون أن يتخلص من عقدته تكون شخصيته مشوبة بالطيف الذي يُمازج خياله، فيبلغ من السن حدا، ولكن تصرفاته فيها كثير من تصرفات الأطفال.

ولعل رغبة الكثيرين في أن يتزوجوا نساء تكبرهم في السن إنما مرده عُقدة أوديب، فهو يبحث عن تسوية نفسية فيختار امرأة كبيرة ليشعر بأنه طفل أمامها، وبذلك يوهم نفسه أنه مازال يعيش في أحداث الطفولة، وأن

الرجل الكثير النزاع مع أمه رجل مريض بعقدة أوديب؛ فقد كبرت به السن دون أن يتمكن من الحصول على أمه فراح يغطي ذلك بالنفور منها، وما هذا النفور إلا مظهر شديد من مظاهر الحب لها؛ لأنك إذا أحببت امرأة وعجزت عن الحصول عليها انقلب ذلك الحب الشديد إلى بغض أشد.

ونعود إلى قصة التدرج بالطفل فنجد أنه في الرابعة شديد التعلق بأمه، ويستمر هذا التعلق سنين فيتلاشى بالتدريج حتى يصل إلى السابعة أو الثامنة أو العاشرة، فاذا بلغ قمة النضج الجنسي الكامل في الثالثة عشر أو الخامسة عشر بات خاليًا من هذه العقدة تمامًا، وراح يتطلع إلى النساء الأخريات كوضع طبيعي لتطور البشر في سبيل التناسل.

وثمة مسألة أُخرى يجب أن نعرج عليها وهي – العادة السرية – إنها طبيعة في طفولة الإنسان منذ الرضاعة، فبينما يرشف الابن لبن أمه في سكون وسعادة تراه يعبث بجهازه التناسلي، ويستمر به الميل للعادة السرية وهو يتدرج خلال السنين الطوال يصعد سلم الحياة حتى يصل سن البلوغ فتبلغ به العادة ذروتها ثم تأخذ دورها في الهبوط تدريجيا حتى تتلاشى تماما وتختفى في الزواج، على أن خطورة العادة السرية تتركز في صعوبة التخلص منها؛ فالمريض الذي يُمارسها قد يأخذه التيار العنيف حتى يمسي أسيرها فيصعب عليه التخلص منها حتى ولو بعد الزواج.

وأذكر قصة امرأه حزينة في الثلاثين من عمرها متزوجة ولها ثلاثة أطفال، تعيش في برود جنسي، وقد ذكرت لي قصة حياتها فقالت:

إنها كانت تُزاول العادة السرية بكثره شديدة، فلما تزوجت ظنت أن الزواج سيشفيها من عادتها، ولكنها لم تتمكن من التخلص من مرضها فكانت تنتظر حتى ينام زوجها وتمارسها، ثم حدث أن وقع في يدها صدفة كتابا عن مضار العادة السرية فامتنعت عنها ولكنها كانت تقضي الليل كله في تفكير عميق وتردد شديد فقد وقعت صريعة الانهيار العصبي نتيجة للصراع النفسي الشديد بين أن تأتي هذه العادة أو تتجنبها. وباتت حياتها مع زوجها سلسلة مُتواصلة من الخلاف الشديد المُستمر، وقد حدث مرة أن تغلب العامل القوي في نفسها الذي كان يدفعها نحو إتيان تلك العادة، حينذاك أحست بانفعال شديد كاد يدفعها إلى الانتحار.

وأذكر قصة شاب في الثالثة والعشرين من عمره جندي بالجيش جاءني وهو خائر الأعصاب نصف فاقد الذاكرة ونصف مشلول في ساقيه، وقد قضى في مستشفى الجيش ستة أشهر دون أن تتقدم حالته بل بالعكس كانت تزداد سوءًا، وبالبحث في سريرة هذا الشاب، تمكنت أن أعرف أنه كان يمارس العادة السرية بمعدل عشرين مرة في اليوم، على أن فقدان الذاكرة والشلل لم يكونا نتيجة لمزاولته هذه العادة المريضة، فقد كان يمازج هذا الشاب خوف شديد من الجندية وكان يخشى أن تدفع به القيادة العسكرية إلى الخطوط الأمامية فدأب على العادة السرية يمارسها بكثرة حتى تعتل صحته ويكون في ذلك عذر وسبب قوي لأن ينجو بنفسه، ولكن العادة لم تكن سبب مرضه، وانما السبب هو الإيحاء القوي الذي سلطه على نفسه ليمرض فمرض، فالشلل الذي به شلل هستيري، وفقدان الذاكرة فقدان هستيري سرعان ما يزولا إذا زالت الأسباب، وكان

في بقائه في المستشفى العسكري ما يؤكد له من أنه سرعان ما يعود إلى الميدان بمجرد شفائه مما زاد في مخاوفه وزاد به الانهيار النفسي وبات بعيداً عن الشفاء، أما العادة السرية فلم يكن لها الأثر الأكبر على مرضه، ولكن كانت عاملا من العوامل التي ساعدت على ضعفه العام مما ساعد على الانهيار.

وخطورة العادة تتركز في الصراع النفسي الذي يسبق مزاولتها والندم الذي يحل بالمريض عقب مزاولتها، وخطورتها أيضًا فيما يلجأ إليه الآباء بصراحة وتحدي في مُواجهة أبنائهم بضرورة الإقلاع عنها.. عندئذ ينتاب المريض شبه نكسة نفسية وهدم الثقة بنفسه والخوف على أسراره من أن تتفشى فيعتقد أن الوالد الذي تمكن من معرفة سر ابنه الذي يزاول عادته في كتمان شديد، لا شك أن هذا الولد يعرف أشياءً أخرى عن ابنه، وفي ذلك تعريض بكرامته وتمزيق شديد لشخصيته.

ولا شك أن كثيرا من الفواجع النفسية يكون مردها مواجهة الوالدين بأخطاء الأبناء دون تمهيد أو استعداد؛ فالصورة المثالية التي يحاول أن يصورها الابن لنفسه أمام والديه صورة براقة فيها كثير من المثل، ومن أجل ذلك يتحاشى الابن أن يظهر أمام والديه بما يمسخ هذه الصورة فكأنهما بذلك حطما آخر خط من خطوط الدفاع النفسية.

فالوالد الذي يرى ابنه يدخن ويواجهه وهو يزاول فعلته النكراء والد جاهل لأنه مزق النقاب الذي كان يحجز وراءه الاحترام والكبرياء، وبات

الابن في حل من التقاليد ومن الأخلاق والمثل ومبادئ العفة والكرامة، وكما أن الطفل تواق للمحافظة على كرامة نفسه فهو أيضا تواق للمحافظة على كرامة والديه؛ فالطفل الذي يواجه أمه في موقف غرامي مع شخص آخر غير أبيه ستتحطم في ذهنه فكرة المثاليات ويعيش في دنيا بلا أخلاق أو مثاليات.

وهناك من الأمراض النفسية ما ينبت في قلب المريض مع مولد الطفولة كمرض (السادزم) أعني مرض حب القسوة والشدة وحب إيذاء الآخرين ومرض (الماسوشيزم) أي مرض الخنوع والذلة والميل إلى النواحي الواطئة، ومرد هذا كله إلى الوالدين؛ فالابن الذي يعيش في جو عاصف مع والد قاس وأم ضعيفة يشرب من البذرة التي يعيش فيها ويحاول في مستقبل حياته أن يمثل الدور العنيف الذي يلجأ إليه أبيه أو يلجأ إلى دور أعنف منه، ليجيد تمثيل الرواية.

وإني أعرف شابًا كان ميالا إلى نبش القبور والاجتماع بالموتى، فكان ينتظر في المدينة حتى يقطف الموت امرأة ويحملها الناس إلى القبر، فسرعان ما يهرع إليها وينبش المقبرة ويظل يتردد عليها أياما حتى تتعفن وتبلى.. وبالبحث عن سريرة هذا المريض وجدنا أن طفولته منحلة فقد كان والده سكيرا عربيدا فظا غليظ القلب وكان ينهال على زوجته ضربا بالسياط دون سابق انذار أو دون شفقة أو رحمة، وكانت أمه امرأة من نساء الليل لا تتورع أن تأتي بأصدقائها الرجال إلى بيت الزوجية وعلى مرأى من ابنها؛ فكانت النتيجة أن نبت الطفل وقد تهدمت فكرة المثالية من ذهنه

وضاعت من ناظريه كرامة أبيه وكرامة أمه ورسخت في ذهنه القسوة كوسيلة فعالة وعملية للوصول والغاية، ومن ثم ضاعت المثل الإنسانية من ناظريه وبات ينظر إلى هؤلاء البشر كأنهم ذئاب تجري وراء المادة، وتفاعلت كل تلك النزعات في نفسه وبات إنسان أشبه بالذئب يلتهم الجيفة والميتة.. ومع أن نباش القبور فئة قليلة جدا في العالم إلا أنهم يحملون معنى الهروب من المدنية والعودة إلى البدائية الأولى، أعني أنهم حطموا صور التراث القديم لوالديهم وداسوا على كرامة المجتمع وباتوا مع الخفافيش.

وهُناك الأمراض النفسية الأُخرى التي تتحكم في العقل، وبالتالي تتحكم في تصرفات الإنسان وأعماله.